

التاريخ والاستحالة في التحولات التاريخية وفي الوعي بها (I)

رضوان السيد

I

كنت أُعدُّ لهذه الأعداد من مجلة الاجتهاد حول التاريخ والوعي به؛ عندما وقعتُ على كتاب أبرهارد شمت E. Schmitt الصادر بميونخ عام 1984 في مجلدين بعنوان: وثائق حول الإجتياح الأوروبي للعالم. الوثائق الواردة في الكتاب كلها شديدة الأهمية؛ لكنَّ ما أثار انتباهي فيما يتعلق بمنطقتنا تلك الوثائق الواردة في المجلد الثاني منه عن تحركات الأسطولين البرتغالي والأسباني فبقية الأساطيل الأوروبية: سفن المدن الإيطالية، والسفن الحربية الهولندية والفرنسية والبريطانية في البحر المتوسط والأحمر وبحر العرب والخليج والمحيط الهندي؛ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

يعرض المؤلف تقارير البحارة والقادة وصُنَّاع الخرائط ورجالات السياسة والمال في العواصم الأوروبية المعنية آنذاك كما في المدن التجارية الإيطالية. وقد حاولتُ التعرف على مدى وعي الدولتين

المملوكية والصفوية آنذاك بالأخطار التي كانت تتهددُهما، وكيف تطور ذلك الوعي مع استيلاء العثمانيين على المشرق العربي. حاولتُ معرفة وجهة نظر أبناء المنطقة في التحركات البرتغالية بالتحديد من خلال كتابين معاصرين لتلك الأحداث هما: بدائع الزهور لابن إياس، والبرق اليماني في الفتح العثماني لقطب الدين النهروالي. وهذا الكتاب بالذات (أعني البرق اليماني) سبق لسارجنت أن استعان به في كتابه: البرتغاليون في الساحل العربي الجنوبي (1963). كما سبق لصبحي ليبب في كتابه المهم: تاريخ التجارة المصرية في العصور الوسطى (1965) أن استعان بابن إياس في «بدائع الزهور». وقد تبين لي أنَّ اهتمامات ابن إياس والنهروالي كانت محلية، وأنَّ ابن إياس بالذات ما كان يفرق بين البرتغاليين وبقية «الفرنجية» الذين عرفهم المسلمون قبل ذلك بثلاثة قرون. بيد أنَّ الأمر الأكثر إثارةً للفرع أنَّ الرجلين؛ بل ورجالات الدولة، ما كانوا يعرفون بالضبط من أين أتى البرتغاليون، وكيف وصلوا إلى البحر الأحمر! وكان سلطان الممالك الجراكسة بمصر ينتظر أخبار بعثته إلى جدة لتحسينها؛ ينتظر تلك الأخبار من «مبشر الحج» الذي لم يسبق له أن كلّفه بالاستطلاع، ولا بالتحادث مع الأمير حسين الكردي المُرسَل لجدة! حالات «غياب الوعي» هذه سبق لابن خلدون أن أطلق عليها تعبير «الخمول». وهذا توصيفٌ يعني الكثير، ويسبق الغزو البرتغالي في الحدوث والسواد، ويتناول مجالات الفكر والرؤية؛ رؤية الذات والدور قبل رؤية الآخر. ولذلك تحسُنُ العودة قليلاً للوراء لتأمل المجال الإسلامي الذي سادته ذلك «الخمول».

كان العالم الإسلامي في جزئه المشرقيّ الشاسع قد تعرّض في القرن الثالث عشر للهجمة المغولية التي بلغت إحدى ذُرَاهَا بالاستيلاء على بغداد وإنهاء الخلافة العباسية. وفضلاً عن الخسائر البشرية الرهيبة، والدمار الفظيع الذي أحدثه الغزو المغوليّ؛ فإنَّ أثره الباقي في الحقيقة كان ضرب الأبعاد السياسية لفكرة «الأمة» وفكرة «دار الإسلام». فقد فصلَ المغولُ الإيلخانيون بلاد فارس والعراق عن بقية دار الإسلام المشرقية:

مصر والشام وشبه الجزيرة العربية. صحيحٌ أنَّ السلطان سليمان القانوني تمكَّن من انتزاع العراق من الصفويين؛ لكنَّ بلاد فارس صارت «إيران»، وتعاونت نُخبُها مع الغُزاة في إستعادة الهوية القديمة والخاصَّة التي كانت لها قبل الإسلام. وبقي الإيرانيون مسلمين؛ لكنَّ «العالمية الإسلامية» تلقت ضربةً قويَّةً ما استطاع العثمانيون من بعدُ بقوتهم العسكرية أن يشفوها من عقابيلها. وكان وزير السلاجقة الشهير نظام المُلك قد ذكر في كتابه «سياست نامه» أنه من الضروريّ للسلطان (الذي كان تركياً) أن يعرف الفارسية؛ لكن ليس من الضروري له أن يعرف العربية! فالفارسية صارت لُغةً البلاط في كلِّ الدويلات التي ظهرت منذ القرن الحادي عشر، والتي كانت في غالبيتها دويلات أقامها عسكريون، وأقامتها عصاباتٌ تركية. ظلَّت العربية لغةً الدين الإسلامي وعلومه. أما بقية فروع الثقافة فتحولت تدريجياً إلى الفارسية الجديدة إلّا في الأقاليم العربية الخالصة. بل إنَّ رجلاً كالغزالي ترك رسائل فارسيَّة كثيرة بعضها في قضايا كلامية وفقهية وصوفية. وكانت دوروتيا كرافولسكي (في كتابها: العرب وإيران) قد لاحظت أنَّ اهتمامات المؤرِّخين بإيران منذ القرن الرابع عشر الميلادي صارت محليةً ضيقةً؛ في حين استأثرت «العالمية الإسلامية» باهتمام مؤرِّخي وموسوعيي العصر المملوكي الأول. وقد استتج الأستاذ الفضل شلق (في كتابه: الأمة والدولة) ارتباطاً بين وعي «العالمية»، ووجود عاصمة الدولة، وحواضرها الكبرى في نواح وبلادٍ عربية. والمعروف أنَّ بغداد بقيت العاصمة حتَّى سقوط الأسرة العباسية؛ لكنَّ الدويلات والسلطنات التي تَعَوَّلَتْ سلطات الخلافة منذ القرن العاشر الميلادي اتَّخذت لنفسها عواصم في نواح غير عربية. وتحملت مصر مسؤوليات «العالمية الإسلامية» بعد سقوط بغداد إلى حدِّ إحياء الخلافة العباسية في القاهرة. وما كان أكثر سلاطين المماليك يعرفون العربية أو الإسلام جيداً؛ لكنَّ النخبة العالمَّة التي أحاطت بهم حاصرَتْهم في نموذج السلطان المُجاهد والمحرَّر والموحَّد لدار الإسلام. وقد أحدثت المواجهة مع الصليبيين والمغول حيويةً ظاهرةً لدى السلطات والنُخب على حدٍّ سواء؛

لكنّ حالةً من الاسترخاء والاكتفاء والرضا عن الذات سيطرت منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي؛ ثم ما لبثت أن تحوّلت إلى سُباتٍ وجمود تحت وطأة ضربات تيمورلنك الصاعقة مطلع القرن الخامس عشر. وكان يمكن أن تنتهي الدولة المملوكية الثانية على يد العثمانيين عقب ضربة تيمورلنك مباشرة لولا أنّ شواظاً من تيمورلنك نال العثمانيين أيضاً فأطال عمر دولة المماليك، مع عوامل أخرى، لقرونٍ ونيّف. وقد بلغ من يأس المقرّيزي المؤرّخ المعروف، مما آلت إليه أمور المماليك الجراكسة؛ أن ذهب إلى أنّ الخراب سيتفشّى في سائر أنحاء المملكة كما نفشّى في القاهرة إن لم يزل المماليك وتزول دولتهم!

II

يذكر المؤرّخ ابن إياس في «بدائع الزهور» تحت العام 1507م (913هـ) أنّ مبشّر الحاجّ أو أميره عاد إلى القاهرة فأخبر السلطات بسلامة الحاجّ المصري والشامي، وأطلع السلطان على أخبارٍ مُقلقةٍ حول زيادة نشاط وتحركات «الفرنجة» في البحر الأحمر. لكنه عزّاه بأنّ البعثة العسكرية التي أرسلها السلطان لمواجهتهم قد وصلت إلى جدّة، وانهمكت في تحصينها، وسُتُحاول بعد ذلك الذهاب إلى عدن لمتابعة المهمة نفسها: «ففرح السلطان لهذه الأخبار»! ولا يعرف المؤرّخ ابن إياس مَنْ هم هؤلاء المُزعجون الذين دخلوا إلى البحر الأحمر لأول مرةٍ بعشرين سفينة، ونهبوا سفن التجار الهنود. كما أنه لا يعرف من أين أتوا. لذلك يلجأ إلى الحكايات والأساطير. أمّا النهروالي صاحب: «البرق اليماني» فيعرف أنهم أتوا من نواحي سبتة بالمغرب الأقصى؛ أمّا دخولهم إلى البحر الأحمر فيبقى لغزاً بالنسبة له!

والواقع أنّ المتتبّع لأخبار ابن إياس ومُعاصريه عمّا يحدث خارج القاهرة ودمشق يعجبُ لضآلة معلوماتهم وأسطوريّتها. فأين تلك الأخبار والمعلومات من تقارير الطبري وابن الأثير بل والمقرّيزي الذي توفي حوالي العام الذي وُلد فيه ابن إياس. فابن إياس مثلاً لا يعرف تاريخ وفاة

تيمورلنك المعاصر له، والذي خَرَّب دمشقَ عام 1401م؛ فيذكر أنه توفي في آذار (مارس) عام 1404م، أو (وهو الصحيح) في شباط (فبراير) 1405م. أمّا مقتل السلطان العثماني مراد عام 1389م اغتيالاً فيعرف به ابن إياس والمماليك بعد خمس سنوات وينصرف ابن إياس بالمناسبة لإيراد تقرير عن العثمانيين يجعلُ منهم قبيلةً عربيةً حجازيةً! العثمانيون الذين كانوا قد أصبحوا القوة الرئيسية التي تهدد السلطنة المملوكية في دار الإسلام هذه هي معلومات السلطات المصرية عنهم! وابن إياس نفسه يذكر عام 1384م خبر سفارةٍ ظنتها السلطات المملوكية من أصدقائها التقليديين من القبيلة المغولية الذهبية في آسيا الوسطى فأقبلت على اختصاصها بتكريم زائد. ثم تبين لهم بعد أيام أنها بعثةٌ من تار القرم فأقلُّوا من اهتمامهم بها! وعندما وصل تيمورلنك إلى جنوب الأناضول 1393/1394م خشي المماليك على ممتلكاتهم في شمال سورية فاضطروا إلى إرسال حملةٍ عسكرية جمعوا عناصرها بصعوبة. بيد أنَّ مشكلةً رئيسيةً واجهتهم: فقد قيل لهم إن تيمورلنك لا يعرفُ العربية فلا بُدَّ من رجلٍ يعرفُ الفارسية للحديث معه عند الضرورة! وبحثوا طويلاً في القاهرة عمن يعرفُ الفارسية فلم يجدوا أحداً إلى أن قيل لهم إنَّ فقيهاً قاهرياً تَخَفَّى يعرفُ تلك اللغة الغريبة! فاتبعوه حتى وجدوه وانتزعوا منه الموافقة على الخروج مع الحملة. لكنَّ حُسْنَ حَظٍّ فقيهننا صرف تيموراً عن مهاجمة حلب ذلك الشتاء فلم تخرج الحملة واستطاع صاحبنا أن يعود إلى بيته وطلابه!

لقد بلغت القطيعةُ بين بلدان الإسلام ودياره هذه الحدود: حدود أن لا يعرفَ أحدٌ في أهمِّ عواصم دار الإسلام آنذاك اللغة الفارسية! والمَرَّجَح أنَّ الأمر ما كان أفضل بكثير في إيران وأواسط آسيا بالنسبة للعربية! ولقد كان على المسلمين وهم في حالتهم تلك أن يواجهوا أحداثاً وتحديات كانت على وشك أن تغَيِّرَ وجه العالم: الكشوف الجغرافية الأوروبية، وبدايات استعمار العالم الجديد والقديم! وكانت تلك المواجهة تتطلب أول ما تتطلب المعرفة الصحيحة والدقيقة بما يجري عندهم وفي العالم من حولهم. والواقع أنَّ سلطاتهم ونُخبَهُم المثقفة ما كانت تعرفُ إلاَّ أقلَّ

القليل مما يمكن أن يفيد في الموقف الجديد.

III

سيطرت في أهم أجزاء دار الإسلام في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ثلاث دول: الدولة المملوكية الشركسية بمصر والشام والحجاز، والدولة الصفوية بإيران وأواسط آسيا، والدولة العثمانية بآسيا الصغرى. وكانت القوة العثمانية الطالعة مشدودةً إلى الصراع مع إيران من جهة، ومشغولةً، بالتوسُّع في جنوب شرق أوروبا ووسطها من جهة ثانية. أما إيران فكانت تستنفد قواها في صراعها مع العثمانيين من جهة، ومع الأوزبك من جهة ثانية. ولذا فإنَّ التوسع البرتغالي في مغرب العالم العربيّ ومشرقه ما أثار في البداية غير قلق السلطات المملوكية بمصر والشام والحجاز وجنوب الجزيرة. واستولى العثمانيون على مصر عام 1517. لكنَّ اهتمامهم ظلَّ مشدوداً إلى الناحيتين السالفتي الذكر. ففي عام 1529م حاصر العثمانيون فيينا للمرة الأولى. ومن هنا فإنَّ مصر التي كانت التدخلات البرتغالية والإيطالية تتهدَّدُ مصائرُها التاريخية؛ خسرت الحرب قبل أن تدخلها: بسبب الانحطاط المملوكي، ثم عدم الاهتمام العثماني.

بدأت تجارة مصر البعيدة المدى، التجارة الآسيوية، تتعرض لمخاطر خارجية جمة منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر. ففي عام 1365م هاجمت سفن حربية فرنسية وجنوية وبنديقية أكبر موانئ العالم التجارية آنذاك: الإسكندرية! فخرَّبَتْها، وغنمت غنائم هائلة، وأخذت أسرى كثيرين. وأراد المماليك الانتقام فبنوا أسطولاً لغزو قبرص، لكنهم ما لبثوا أن دمَّروه في صراع داخلي! وما عادت الإسكندرية آمنةً ولا محمية، كما أنَّ طرابلس الشام، ميناء دمشق، كانت تتعرض للهجمات دون أن تستطيع السلطات الدفاع عنها. لقد تغير تكتيك الأوروبيين: أرادوا أن يتولوا التجارة بأنفسهم ودونما وسطاء. لقد جمعوا خبراتٍ من خلال وكلائهم وممثليهم في المدن الساحلية والتجارية الإسلامية. والعجيب أنَّ المسلمين ما اهتموا بأن يكون لهم ممثلون ووكلاء في المدن الأوروبية

التي كانوا يتّجرون معها. وقد يعود ذلك إلى النفقات الضخمة التي كان التاجر المسلم يتكبدها نتيجة سياسات السلطات فقد بدأ رجالُ الدولة في العصر المملوكي الثاني يصطنعون لأنفسهم احتكارات سِلْعِيّة (السلطان برسباري مثلاً) يفرضون على التجار بعدها شراء السِّلَع بالسعر الذي يريدونه! كما أنّ التاجر كان يتعرض للمُصادرة أو الضرائب الباهظة. وقد أدّى ذلك مع تطاول المدة إلى استنفاد ثروات أُسَرٍ تجارية كثيرة، وإلى عدم الميل للاستثمار على المدى الطويل أو التفكير في إقامة وكلاء في مُدُن التعامل والاستيراد عَصراً للنفقات. وانصرف كثيرون عن التجارة تماماً للاستثمار في الأراضي الزراعية التي كانوا يشترونها بشكلٍ غير شرعيٍّ من الضباط المماليك رغم أنها كانت إقطاعيات غير وراثية. وأدّت إجراءات ومظالم السلطات إلى ارتفاع أسعار السِّلَع ارتفاعاً جنونياً. فيذكر الأستاذ صبحي لبّيب أنّ البندقية نصحت تجارها بعدم النزول بِسِلْعِهِمْ إلى البرّ أو الشراء من البرّ بل الانتظار في السفن من أجل التعامل توفيراً للضرية على الأقل! وهكذا وجد التجار الأوروبيون أنفسهم أواخر القرن الرابع عشر أمام أحد خيارين: إمّا اكتشاف طرق بحرية تجنّبهم المدن الساحلية والطرق البرية الإسلامية أو الإستيلاء على بعض المراكز الساحلية الإسلامية. وفي القرن الخامس عشر تمكن الأوروبيون من فعل الأمرين: اكتشاف طرق جديدة، والسيطرة على بعض السواحل والطرق البحرية. وما تفاقم الصراعُ ظاهراً للجوء العثمانيين إلى إعطاء امتيازاتٍ للمدن الإيطالية والقوى الأوروبية البحرية الأخرى للاستفادة من عائدات التجارة.

وكان المماليك يعرفون أنّ الأوروبيين يبحثون عن طرقٍ لتجنّب ضرائبهم واحتكاراتهم؛ ولذلك منعوهم من التوغل في داخل البلاد، كما منعوهم من استكشاف البحر الأحمر. لكنّ الأوروبيين حاولوا ذلك منذ الربع الأول من القرن الخامس عشر؛ وبخاصة أبناء المدن الإيطالية. فالملك البرتغالي غواو الثاني ما كان الأول في محاولة الطواف حول إفريقيا من السواحل الغربية.

انصرف الأمير حسين الكردي، الذي أرسله السلطان قانصوه الغوري للتصدي للبرتغاليين لتحسين جُدّة. بعدها مضى في أعماق المحيط الهندي لنجدة سلطنة الكُجرات التي استنجد ملكُها المسلم بالسلطان بعد أن سيطر البرتغاليون على بعض موانئ بلاده، ووقفوا حائلاً دون تجارة الكجرات مع مصر. وفي عام 1508 لاقى الأمير حسين البرتغاليين جنوب بومباي وهزمهم ودمّر عدداً من سفنهم. بيد أنه اضطر للتراجع في العام التالي أمام ضغوطهم وهجماتهم. ورفض أمير عدن التعاون مع الأسطول المملوكي لحماية الشواطئ فظلَّ الأمير حسين يطوف في البحر، ويستخدم موانئ جدّة والإسكندرية رغم البُعد النسبي عن مسرح الأحداث إلى أن تمكّن من احتلال زَبِيد عام 1516م. وما كان البرتغاليون هادئين في تلك الفترة. فقد حاولوا الاستيلاء على عدن ففشلوا لكنهم استولوا على هُرْمُز عام 1515م. ورأى القائد المملوكي - كالبرتغاليين تماماً - أنَّ عدن ضرورية كمنطقة انطلاق لكنه ما استطاع الاستيلاء عليها فعاد حسيماً إلى جدّة. وفي العام التالي (1517م) سقطت السلطنة المملوكية تحت ضربات العثمانيين.

بالاستيلاء على مصر والحجاز ثم العراق عام 1536م (في عهد السلطان سليمان) سيطر العثمانيون على مدخلي المحيط الهندي. لكنَّ اهتمامهم كان إلى جانب إيران بشرق أوروبا ووسطها: هناك يمكن كسْب أرضٍ جديدةٍ للإسلام، وهناك يحصل السلطان على لقب «الغازي». ولذا فرغم أنهم لم يهملوا شرق المتوسط والبحر الأحمر تماماً؛ فإنَّ تركيزهم كان في أمكنةٍ أخرى، واكتفوا في هذه الناحية بانتصاراتٍ صغيرة.

كانت عدن هي المشكلة الرئيسية في النظام الدفاعي المملوكي. أما في العهد العثماني فقد صارت اليمن كلّها مشكلة. صحيح أنَّ العثمانيين سيطروا على زَبِيد بعد مقاومة. لكنهم ما استطاعوا التوغّل في الداخل إلّا بخسائر كبيرة كما يشير لذلك النهروالي. بدأ العثمانيون بتوسيع ميناء السويس وتحسينه، وبنوا فيه، كما جلبوا إليه سفناً حربيةً حوالي العام

1530م. وعام 1536م وصلت رسل سلطان الكجرات إلى أدرنة شاكيةً للسلطان العثماني ما يفعله البرتغاليون. فقد استولوا هناك على حصن ديو، وكانوا على وشك الاستيلاء على سائر البلاد. وخرج الأسطول العثماني أخيراً إلى البحر عام 1538م بقيادة المدعوّ خادم سليمان باشا والي مصر. توقّف القائد في جذّة قليلاً ثم مضى إلى عدن حيث استُقبل - على غير المنتظر - استقبالاً حاراً. فانتهز العثماني الفرصة وقتل الأمير وضَمَّ عدن إلى ممتلكات السلطان! بعدها وصل الأسطول إلى الكجرات لمواجهة البرتغاليين. لكنّ بعدما حدث بعدن ما جرؤ السلطان هناك - ابن بهادرشاه المقتول من جانب البرتغاليين - على مقابلة خادم سليمان باشا. وبدلاً من مواجهة البرتغاليين أخيراً سارع القائد العثماني للمغادرة والعودة إلى السويس عندما سمع أنّ مئاث من السفن البرتغالية تتجه إليه! واقتنع البرتغاليون بضعف الأسطول العثماني بمصر فحاولوا مهاجمة السويس عام 1540م.

ورغم أنّ الأسطول بمصر ما حقّق نجاحاتٍ تُذكرُ طوال عشر سنوات؛ فإنّ العثمانيين حاولوا مرةً أخرى أن يفعلوا شيئاً ضد البرتغاليين. ففي عام 1547م عيّن السلطان بيري رئيس أحد ضبّاط البحرية العثمانية قائداً للأسطول في المحيط الهندي. وكان أول ما فعله بيري رئيس استعادة عدن من البدو الذين استولوا عليها. كما أنه استعاد مسقط من البرتغاليين، وكان على وشك استعادة هُرمُز منهم لولا أنه آثر الانسحاب إلى البصرة لأسبابٍ غير مفهومة. وكانت تلك آخر المحاولات العثمانية المهمة لاستعادة السيطرة في البحر الأحمر والمحيط الهندي. وانشغل العثمانيون في النصف الثاني من القرن السادس عشر بالدفاع عن مواقعهم في البحر المتوسط؛ لكنهم أضاعوها أيضاً بعد هزيمة الأسطول وتدميره في ليبانتو عام 1571م في مواجهة تحالفٍ من البنادقة والأسبان والبابوية. ومنذ ذلك الحين انصرف العثمانيون كلياً عن الاهتمام الجدي بالشرق وقضوا القرون التالية محاولين الدفاع عن مواقعهم في البلقان.

أما المحيط الهندي فقد سيطر فيه لعدة عقود البرتغاليون. ثم نافسهم الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون. وكما يقول تلمان ناغل T. Nagel في مقالة له عن الصراع على آسيا؛ فإنَّ القرن السادس عشر شهد تثبيت أقدام القوى الأوروبية في القارة القديمة براً وبحراً.

* * *

حاول ابن إياس في تقريره السالف الذكر عن أحداث العام 1507م المتصلة باندفاعات البرتغاليين وتحدياتهم في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج؛ حاول أن يعرف: من أين أتى هؤلاء «الفرنجة»؟ وكيف دخلوا إلى تلك السواحل؟ فماذا قال؟ قال إنَّ الفرنجة الملاعين دأبوا طوال عشرات من السنين على الحفر والضرب في السدّ الذي بناه الإسكندر المقدوني لمنع يأجوج ومأجوج من اجتياح العالم. وأخيراً استطاعوا إحداث ثقبٍ ضخمٍ في جبل يفصل بحر الصين عن البحر الأوسط. ثم تابعوا الضرب في تلك المغارة إلى أن أفضت بهم إلى بحر الهند، ومن بحر الهند وصلوا إلى البحر الأحمر! فالفرنجة هؤلاء آتون مما وراء السدّ، مما وراء القوقاز! أمّا قطب الدين النهروالي فلا يمضي في الأوهام إلى هذا الحدّ لكنه يملك تصوراتٍ ليست أقلّ وهماً. لقد أتى الفرنجة من سبته ولامسوا طرف الكرة الأرضية عند «بحر الظلمات» من ناحية الغرب حيث اكتشفوا الجبال التي ينبع منها النيل ثم مضوا جنوباً فوجدوا مضيقاً أفضى بهم إلى الشرق فوصلوا إلى ماليندي التي استعانوا فيها بخبرات البحّار الشهير أحمد بن ماجد الذي قادهم في المحيط إلى الهند!

أمّا ابن إياس فلا يعرف شيئاً عن بحوث الفلكيين والجغرافيين العرب والمسلمين عن العالم وأجزائه ونواحيه؛ لذا فهو يلجأ إلى قصة الإسكندر ذي القرنين الشعبية التي لا تتعلّق بالجغرافيا بل بأمارات يوم القيامة. وأمّا النهروالي فلا يصدّقُ بكروية الأرض التي أطبق عليها الفلكيون والجغرافيون العرب والمسلمون منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع

الميلادي. وحده أحمد بن ماجد يعرف كيف وصل البرتغاليون إلى الهند، ودون مساعدته. يقول ابن ماجد إنّ الفرنجة هؤلاء استكشفوا الطرق البحرية حول إفريقية الجنوبية، مستعينين بالعلم العربي، وتقارير الرّحالة والجغرافيين العرب. وقد وسّعوا تلك التقارير وصحّحوها بالخبرة والتجربة والاستكشاف. وبالمعرفة والتجربة استطاعوا السيطرة على طريق الهند.

